

القاضي الرشيد الأسواني (ت ٥٦٣هـ) حياته وما تبقى من شعره

د. م. محمد أحمد شهاب
جامعة تكريت / كلية الآداب

د. عامر خلف طعمه
جامعة تكريت / كلية التربية - سامراء

مقدمة

القاضي الرشيد ، أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير ، واحد من شعراء القرن السادس الهجري وكتابه المبدعين ؛ ونحن في هذا البحث تناولناه شاعراً وحسب . وشعره الذي بين أيدينا ، ينم عن شاعرية فذة ، إذ لا يكاد يطلعه القارئ حتى يقع في نفسه منه شيء من الإعجاب ، فهو سلس الألفاظ حلو المعاني جميل في موسيقاه . وعلى الرغم من ذلك كله فإن هذا الرجل لم ينل من اهتمام الباحثين المحدثين نصيباً من الاهتمام يمكن الإشارة إليه أو التعويل عليه . وقد دفعنا ذلك إلى الكتابة عنه والتعريف به ، خدمة منا لتراث الإسلام الخالد . ومساهمة في رفع غبار النسيان عن أدباء كان لهم دور مهم في الحياة الأدبية لعصرهم .

اسمه وكنيته ولقبه

هو احمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير^(١)، يكنى بابي الحسين^(٢)، ولا نعرف إن كان له ولد بهذا الاسم ، أو انه كُني به على العادة المألوفة . وان كل ما نعرفه هو أن له ولد اسمه علي ذكره صاحب الخريدة مع أبيات شعر له منها^(٣):

شيدت بالبيض والعسالة الذبل مجداً أناف على التسرير والحمل

ويلقب بالرشيد^(٤)، وبالقاضي الرشيد تارة أخرى^(٥)، وهو بهذا اللقب اعرف وبه اشهر، ومن ألقابه الأخرى التي وردت في مصادر ترجمته، الغساني^(٦) والأسواني المصري^(٧).

حياته

لم تشر مصادر ترجمته ولا أخباره إلى سنة ولادته ، أما عن مكان هذه الولادة ، فقد أشار ياقوت الحموي إلى انه ولد بأسوان من صعيد مصر، وذكر أيضاً انه (هاجر منها إلى مصر)^(٨).

وفيما يتعلق بنشأة الشاعر ، فلا نعرف شيئاً واضحاً عن بداياتها وتفاصيلها لسكوت أخباره وتراجمه عنها . إلا انه على الأرجح ، قد نشأ بأسوان لأسرة مترفة ، فقد جاء في أخباره انه (من بيت كبير بالصعيد معروف بالمال)^(٩)، فهو إذن قد نشأ مكفيّ المؤونة في أسرة غنية ذات جاه عريض ، الأمر الذي هياً له بيئة ملائمة لان يتتقف بعلم عصره المعروفة آنذاك . وكما يظهر من خلال الأخبار المنقولة عنه ، فإن ثقافته كانت منوعة ، فقد جاء في

نعته ، أنه (كان كاتباً شاعراً فقيهاً نحوياً لغوياً عروضياً منطقياً مؤرخاً مهندساً طبيباً موسيقاراً منجماً مفنناً)^(١٠).

فهو ، إذن وكما هو واضح ، كان موسوعي المعرفة على عادة العلماء في عصره .
ومن خلال ما نقل عنه أيضاً ، نفهم أن شاعرنا كان قد أتقن هذه العلوم إلى الحد الذي يمكنه
من أن يضع تآليف في الكثير منها .
جاء في أخباره أنه كانت له تآليف في الكثير من العلوم ، كان لها صداها في عصره
وفي ما تلاه من اعصر . سنأتي على ذكرها عند الحديث عن ثقافته .

صفاته

وصفه من ترجم له ، أنه كان (قبيح المنظر، أسود الجلد، جهم الوجه، سمج الخلقة، ذا
شفة غليظة، وأنف مبسوط، كخلقة الزنوج، قصيراً)^(١١). وقد ورد وصفه هذا فيما هجي به من
أشعار . فقال فيه محمود بن قادوس الشاعر يهجو^(١٢):

إن قلت من نار خلقـ ت وفقت كل الناس فهما
قلنا صدقت فما الذي أطفاك حتى صرت فحما

ولآخر أيضاً قوله فيه بعدما حُبس في مطبخ لأمر بدت منه^(١٣):

تولى على الشيء أشكاله فيصبح هذا لهذا أخوا
أقام على المطبخ ابن الزبيـ ر فولى على المطبخ المطبخا

وعلى الرغم من أن أخباره لم تشر إلى ما كان يتحلى به من صفات خلقية ، فإن ما
ورد في أخباره من قصص منقولة عنه ، تدل على أنه كان دمث الخلق ، حلو المعشر ، فقد
جاء في إحدى القصص المروية عنه، أنه في عنفوان صباه كان يجتمع مع نفر من أصحابه في
دار واحدة بالقاهرة . وفي إحدى المرات غاب عنهم رجل فطال انتظارهم له . حتى إذا مضى
معظم النهار، اطل عليهم، ولما سألوه عن سبب إبطائه عنهم، تبسم وقال: (لا تسألوا عما جرى.
فقلنا: لا بد، وألحنا عليه، فقال: مررت اليوم بالموضع الفلاني وإذا امرأة شابة صبيحة الوجه
وضيئة المنظر حسانة الخلق ظريفة الشمائل، فلما رأنتي نظرت إليّ نظر مطمع لي في نفسها،
فتوهمت أنني وقعت منها بموقع ونسيت نفسي، وأشارت إليّ بطرفها فتبعتها وهي تدخل في
سكة وتخرج من أخرى حتى دخلت داراً وأشارت إليّ فدخلت ورفعت النقاب عن وجهه كالقمر
في ليلة تمامه، ثم صفقت بيديها منادية: يا ست الدار فنزلت إليها طفلة كأنها فلقة قمر فقالت
لها: إن رجعت ... في الفراش تركت سيدنا القاضي يأكلك. ثم التفت إليّ وقالت : لا أعدمني الله
فضل سيدن القاضي أدام الله عزه، فخرجت وأنا خزيان خجل لا أهندي الطريق)^(١٤).

ثقافته

لم تشر مصادر الشاعر إلى شيء له صلة بموارد ثقافته ، ولا إلى أساتذته ، ولكن ،
كما يبدو ، فإن مركز أسرته الاجتماعي والمادي قد هيا له من يؤدبه ويعلمه العلوم والمعارف
التي كانت سائدة في عصره . ولعل ما وصف به من الاقتدار على المكاتبة والشعر دليل

واضح على تنوع هذه الثقافة وعمقها. ويبدو أن ثقافته الأدبية كانت متميزة عنده ، ولعل نشأته مع أخيه المهذب بن الزبير المتوفى سنة (٥٦١هـ)، قد أكسبته الكثير من عناصر هذه الثقافة ، فقد كان المهذب ، كاتباً شاعراً كبيراً في وقته (١٥) . وله شعر كثير ، وهو اشعر من أخيه ، جاء في الروضتين (وأخوه المهذب أبو علي الحسن بن علي بن الزبير أشعر منه وتوفي قبله بسنة، لم يكن في زمانه أشعر منه. وله شعر كثير) (١٦) وفي أخبار شاعرنا ما يدل على ولوعه بالشعر ، والمح بعض من ترجم له إلى علاقته المميزة بأخيه المهذب. عندما كتب إليه القاضي الرشيد قصيدة تعد من أطول النماذج الشعرية المتكاملة التي وصلتنا إذ قال (١٧):

رحلوا فلا خلت المنازل منهم	ونأوا فلا سلت الجوانح عنهم
وسروا وقد كتموا الغداة مسيرهم	وضياء نور الشمس ما لا يكتم
وتبدلوا أرض العقيق عن الحمى	روت جفوني أي أرض يمموا
نزلوا العذيب وإنما هي مهجتي	نزلوا وفي قلب المقيم خيموا
ما ضرهم لو ودعوا ما أودعوا	نار الغرام وسلموا من أسلموا
هم في الحشا إن أعرقوا أو أشأموا	أو أيمنوا أو أنجدوا أو أتهموا

وكان للمجالس التي كان يحضرها مع أقرانه ومعاصريه من الشعراء والأدباء والعلماء اثر واضح في إغناء هذه الثقافة وفي تنوعها ، وكان للشعر حصة كبيرة في هذه المجالس فضلاً عن علوم أخرى كثيرة مما يصلح مادة خصبة للمحاورة والمناظرة وفي أخباره شيء من ذلك فقد أورد ياقوت في معجمه خبراً عنه مفاده : أن الشريف ، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد العزيز الإدريسي (١٨)، حدثه فقال: انه (اجتمع ليلة عند الصالح بن رزيك، هو وجماعة من الفضلاء، فألقى عليهم مسألة في اللغة، فلم يجب عنها بالصواب سواه، فأعجب به الصالح، فقال الرشيد: ما سئلت قط عن مسألة إلا وجدتي أتوقد فهماً. فقال ابن قادوس، وكان حاضراً (١٩):

إن قلت: من نار خلق	ت، ووقت كل الناس فهماً
قلنا: صدقت، فما الذي	أطفاك حتى صرت فحماً؟

وكان من ثمار هذه الثقافة المنوعة أن الشاعر لم يقتصر على فني الكتابة والشعر وإنما تعدى ذلك إلى المشاركة في مجال التصنيف والتأليف في مختلف العلوم وقد ذكر لنا مترجموه جملة من مؤلفاته ولا بأس أن نذكرها وهذه التأليف هي (٢٠):

١- منية الألمي وبلغة المدعي (٢١) .

٢- كتاب المقامات

٣- كتاب جنان الجنان وروضة الأذهان، في أربع مجلدات، يشتمل على شعر شعراء مصر، ومن طراً عليهم (٢٢).

- ٤- كتاب الهدايا والظرف.
- ٥- كتاب شفاء الغلة في سمت القبلة.
- ٦- كتاب رسائله نحو خمسين ورقة
- ٧- كتاب ديوان شعره، نحو مائة ورقة.

عمله

أشارت مصادر الرجل إلى انه لم يكن يتخذ من شعره وسيلة للكسب^(٢٣)، غير أن شعره كما يظهر كان السبب في تقدمه وفي نيله الحظوة لدى الحكام في وقته فقد قيل انه دخل إلى مصر بعد مقتل الظافر^(٢٤) وجلوس الفائز^(٢٥). فحضر المآتم مع جمع من الشعراء فألقى قصيدة غراء يقول فيها^(٢٦):

ما للرياض تميل سكرًا هل سقيت بالمزن خمرا
إلى أن وصل إلى قوله:

أفكر بلاء بالعرا ق، وكر بلاء بمصر أخرى؟

وكانت السبب في تقدمه في الدولة المصرية في أول أمره، وولي بعد ذلك النظر بثغر الإسكندرية^(٢٧)، ومازال يتقدم فيها إلى أن أنفذ من جهة حكامها رسولا إلى اليمن ثم قلد قضاءها ونال لقب قاضي قضاة اليمن وداعي دعاة الزمن ويبدو أن نفسه قد سمت إلى رتبت الخلافة فدعا لنفسه فبايعه الناس وسلموا عليه بها وضربت له السكة على الوجه الواحد (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وعلى الوجه الآخر: الإمام الأجدد، أبو الحسين احمد، ثم قبض عليه، وانفذ مكبلاً إلى قوص^(٢٨) فدخلها وهو مغطى الوجه وهم ينادون عليه بين يديه: هذا هو عدو السلطان احمد بن الزبير^(٢٩). فحبس وما لبث بعد حين أن افرج عنه بأمر الصالح بن رزيك^(٣٠) وأعادته إلى ما كان عليه من عزٍّ وكرامة.

أدبه

مارس القاضي الرشيد الأدب بشقيه الشعر والنثر ويبدو انه كان ذا اقتدار وتمكن منهما، معروف بذلك عند معاصريه، وقد أشار من ترجم له إلى هذا الأمر، فنعت بأنه كان (كاتباً شاعراً متقناً)^(٣١). وانه كان (من أفراد الدهر فضلاً في فنون كثيرة)^(٣٢)، وقال ابن خلكان في صفته (كان من أهل الفضل والنباهة والرياسة، صنف كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان وذكر فيه جماعة من مشاهير الفضلاء، وله ديوان شعر، ولأخيه القاضي المهذب أبي محمد الحسن ديوان شعر أيضاً، وكان مجيدين في نظمهما ونثرهما)^(٣٣).

ولتقدمه في الكتابة (وليّ النظر بثغر الإسكندرية والدواوين السلطانية بغير اختياره)^(٣٤). ومع أنه كان شاعراً وكاتباً، فإننا لا نعرف على جهة الدقة بأي الفنين عرف اكثر، ويبدو انه قال الشعر في سن مبكرة. فقد قيل أن أول شعر قاله كان سنة ست وعشرين

وخمسمائة . وأشار مترجموه إلى وجود ديوان شعر له ، وأنه كان في خمسين ورقة وقد ذكروه في جملة تأليفه . مما يحملنا على القول أن الرجل هو الذي جمعه بنفسه، ولكنه فقد مع ما فقد من مؤلفاته بسبب لا نعرفه.

إن ما وقفنا عليه من شعره لم يكن كثيراً وهو لا يعدو أن يكون أنموذجاً شعرياً يبدو أنها نتفاً من قصائد اقتطعها أصحاب التراجم ليتمثلوا بها لهذه المناسبة أو تلك ، عدا قصيدة واحدة أوردوها كاملة كما يبدو ، فهي تزيد على الثلاثين بيتاً وكان الشاعر يجيب فيها أخاه المهذب عن أبيات من الروي والقافية نفسها كان بعثها إليه. مما يحملنا على القول بثقة واطمئنان أن الرجل كان من أصحاب النفس الطويل في الشعر ، وأنه كان ذا اقتدار وتمكن فيه .

واضح مما وصل إلينا من شعره ، أنه قاله في معان كثيرة ، مما يدل على سعة مداركه وسعة ميدان شاعريته ، وحجة بينة على اقتداره في هذا الفن ، وهو برهان على ما قاله ابن خلكان في حقه إذ عدّه (أوجد عصره في علم الهندسة والرياضات، والعلوم الشرعية، والآداب الشعرية) (٣٥).

طرق القاضي الرشيد فنون الشعر المعروفة ، فقد توزع ما وصل إلينا من شعره على فنون عدة ، كالمدح والهجاء والوصف ، والفخر والحكمة . وصل إلينا من مديحه نتفاً قالها في جماعة من ملوك عصره ، فله في الملك الكامل (٣٦):

إذا ما نبت بالحُرِّ دارٌ يودُّها	ولم يرتحل عنها فليس بذي حَزْمٍ
وهبهُ بها صبّاً ألم يدرِ أنها	سيزعجه منها الحمَامُ على رَغْمٍ
ولولا الأجلُ الكاملُ المَلِكُ أرقَلتُ	بي العيسُ في الببداءِ والسفنُ في اليمِّ
ولم تكن الدنيا تضيقُ على فتى	يرى الموتَ خيراً من مقامٍ على هَضْمٍ

وكان الرجل على صلة طيبة بالصالح بن رزيك ، فقد مدحه بقصيدة جميلة حسنة الوقع منها: (٣٧):

ما للغصون تميدٌ سكرًا	هل سقّيتَ بالمزِنِ خمرا
جاري الملوكِ إلى العلا	لكنهم ناموا وأسرى
سائلٌ به عصبَ النفا	ق غداة كان الأمرُ إمرا
أيامَ أضحى النكرُ معروفاً	وأمسى العُرفُ نكرا
قسماً بمن طافَ الحجيجِ	ببيته شعثاً وغُبرا
لولا طلائعُ لم نكن	نرجو لميتِ الدينِ نَشرا

والمتأمل في مديح الرجل ، يجد أنه لا يكاد يخرج فيه عن معاني المدح المعروفة . فهو على عادة شعراء المديح ، غالباً ما ينوه بكرم الممدوح ونواله ، وربما خلط مديحه بشيء

من الحكمة كما هو واضح في مدح الملك الكامل ، وقد يخلطه بمعان دينية يجنح فيها إلى المبالغة المفرطة كما هو واضح في البيتين الأخيرين من القطعة السابقة .

أما الهجاء أو الذم فليس فيما وصل إلينا من شعره سوى مقطوعة واحدة قالها في رجل غير معروف لنا يبدو من خلالها أنه كان وعده بشيء ثم اخلف ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يكن يسيء بها أو يهبط إلى مستوى الشعراء الهجائين في عصره ، فقد نأى بنفسه فيها عن السباب والشتم والتعريض إلى الأعراض ، فكان إلى طريقة شعراء الجاهلية اقرب منها إلى طريقة معاصريه ، كما أن وظيفته – كقاضي – تحتم عليه الالتزام في شعره من الناحية الأخلاقية فيقول فيها^(٣٨) :

لئن خاب ظني في رجائك بعدما ظننت بأنني قد ظفرت بمنصف
فإنك قد قلدتني كل منة ملكت بها شكري لدى كل موقف
لأنك قد حذرتني كل صاحب وأعلمتني أن ليس في الأرض من يفني

ولاشك في أن نعته لهذا الرجل بعدم الوفاء بهذه الطريقة الساخرة يعد من الهجاء المؤلم الذي يذكرنا بهجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر^(٣٩).

ولم يكن الشاعر في فخره . مزهواً بحسبه ونسبه ولا بمكانة أسرته الاجتماعي ، على الرغم من كونه من أسرة معروفة بجاهها العريض في وقته . وإنما فخر بما كان يتحلى به من صفات خلقية مثلى ، كالإباء وثباته على خلقه الرفيع على الرغم من صروف الزمان ، كقوله^(٤٠):

جلت لدي الرزايا بل جلت هممي وهل يضر جلاء الصارم الذكر
غيري يغيره عن حسن شيمته صرف الزمان وما يأتي من الغير
لو كانت النار للياقوت محرقةً لكان يشتبه الياقوت بالحجر
لا تغررن بأطماري وقيمتها فإنما هي أصداف على درر
ولا تظنّ خفاء النجم من صغر فالذنب في ذلك محمول على البصر

وفي شعره نماذج يمكن أن ندرجها ضمن باب الزهد والحكمة كقوله^(٤١):

سمحنا لدنيا بما بخلت به علينا، ولم نحفل بجل أمورها
فيا ليتنا لما حرمتنا سرورها وقينا أذى آفاتنا وسرورها

وشكا الشاعر كغيره من الشعراء الناس ، وما يلحقه منهم من أذى وظلم . وخيبة أمل ، ونجده أحياناً يأتي بهذه الشكوى في موضوعات الشعر ، كالمدح والهجاء . فقال يشكو الناس وما لقي منهم^(٤٢):

تواصى على ظلمي الأنام بأسرهم وأظلم من لاقيت أهلي وجيراني
لكل امرئ شيطان جن يكيده بسوء ولي دون الوري ألف شيطان

ويبدو أن ما لحقه أثناء حياته من أذى السجن حيناً والمطاردة حيناً آخر أثر في نفسه فكانت هذه الشكوى المرة التي تطفو بين الحين والحين في ثنايا ما عالجه من موضوعات. وغزل الشاعر كما يظهر من خلال ما وصل إلينا من شعره تقليدي جرى فيه على النهج المألوف عند الشعراء الغزليين ، وهو يجنح فيه إلى طريقة الشعراء العذريين الذين نأوا بأنفسهم عن الوصف المادي لمحباتهم وانصرفوا إلى وصف لواعج الحب والهوى والفرق وأثار ذلك في أنفسهم فيقول^(٤٣):

أحبابنا، ما كان أعظم هجركم	عندي، ولكن التفرق أعظم
غبتم، فلا والله ما طرق الكرى	جفني، ولكن سح بعدكم الدم
وزعتم أني صبور بعدكم	هيهات، لا لقيتم ما قاتم
وإذا سئلت بمن أهيم صباية	قلت: الذين هم الذين هم هم
النازلين بمهجتي وبمقلتي	وسط السويداء، والسواد الأكرم
لا ذنب لي في البعد أعرفه سوى	أنني حفظت العهد، لما خنتم
فأقمت، حين ظعنتم، وعدلت، لم.....	ما جرتم، وسهدت، لما نتمتم
يا محرقاً قلبي بنار صدورهم	رفقاً، ففيه نار شوق تضرم
أسعرتم فيه لهيب صباية	لا تنطفي إلا بقرب منكم
يا ساكني أرض العذيب سقيتم	دمعي، إذا ضن الغمام المرزم

إن هذا الأنموذج دليل واضح على قدرة الشاعر ومهارته وتمكنه بهذا الفن . وإن كانت معانيه فيه لا تختلف كثيراً عن معاني سالفه من الشعراء ، كما أشرنا .

من خلال ما تقدم من أشعار تمثلنا بها للشاعر في الموضوعات المختلفة . نلاحظ عنايته بلغته . فألفاظه مختارة منتقاة تتسم بالوضوح والسهولة . وتلك سمة محمودة في الشعر وصفة محببة إلى النفس إذا لم يخرج فيها الشاعر عن الحدود المقبولة التي يألّفها الذوق السليم . وإذا لم يهبط فيها إلى مستوى الركافة ، والابتذال التي تشين الشعر وتعييه . فلطالما مال الشعراء المجددون في العصر العباسية إلى مثل ذلك وعزفوا عن الألفاظ الغامضة والصعبة التي عُضيَ عليها ولم تعد تستعمل في لغة الخطاب اليومي للناس في تلك الأزمنة .

وفي شعره نلاحظ أيضاً عناية واضحة بفنون البديع على اختلافها ، وهي عناية لم يبلغ فيها حد التكلف . ولعل ابرز ما عني به في تلك الفنون هو السجع أو ما يعرف بالترصيع المفضي إلى جمال موسيقى الشعر كقوله

فأقمت، حين ظعنتم، وعدلت، لم ما جرتم، وسهدت، لما نتمتم

وقوله :

في معشر خلقوا شخوص بهائم يصدى بها فكر اللبيب ويهمهم
إن كورموا لم يكرموا أو علموا لم يعلموا، أو خوطبوا لم يفهموا
وفي الكثير من المواطن في شعره يمكننا أن نلاحظ أيضاً عناية خاصة للشاعر بالتناظر اللفظي
وهو لون من ألوان الصنعة البديعية ، كقوله :

ما ضرهم، لو ودعوا من أودعوا نار الغرام، وسلموا من أسلموا
وقوله :

لئن أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا فلست أنال القحط في أرض قحطان
ومذ كفلت لي مآرب بمآربي فلست على أسوان يوماً بأسوان
ومثله قوله :

جار الزمان علي، لما جرتم ظلماً، ومال الدهر، لما ملتم
ومن أجل أن يظفر الشاعر بحلاوة الموسيقى وربما وجدناه في أحيان كثيرة يعمد إلى تقطيع
الأبيات تقطيعاً متساوياً كما في قوله :

هم في الحشا إن أعرقوا أو أشاموا أو أيمنوا، أو أنجدوا، أو أنتهموا
وقوله :

ورحلتهم، وبعدتهم، وظلمتم ونأيتهم، وقطعتهم، وهجرتم
ومن ألوان الصناعة البديعية التي كان للشاعر ولع بها ، الطباق والجناس كما هو واضح في
قوله :

سائلُ به عَصَبَ النفا.....ق غداةَ كان الأمرُ إمرا
أيامَ أضحى النكرُ معروفاً وأمسى العُرفُ نكرا
وكقوله :

النازلين بمهجتي وبمقلتي وسط السويداء، والسواد الأكرم
لا ذنب لي في البعد أعرفه سوى أنني حفظت العهد، لما خنتم
فأقمت، حين ظعنتم، وعدلت، لم ما جرتم، وسهدت، لما نمتم

ويبدو أن الشاعر كان نظر في بعض شعره إلى غيره من الشعراء فأخذ من معانيهم . وقد
فطن غير واحد ممن ترجموا له وأوردوا نبذاً من أشعاره إلى ذلك ، وهذه قضية قديمة لا
غرابة فيها لان الشاعر أيّاً كان إنما يعتمد في التعبير عن معانيه على مخزون ذاكرته من
تراث الأسلاف .

فقد لاحظ ابن شاعر الكتبي أن في بيتي الشاعر

ولما نزلنا في ظلال بيوتهم ولما نزلنا في ظلال بيوتهم
ولو لم يزد إحسانهم وجميلهم على البر من أهلي حسبتهم أهلي

زيادة ومبالغة على بيتي الحماسة المشهورين . وهما :

نزلت على آل المهلب شاتياً بعيداً عن الارضان في زمن محل

فما زل بي احسانهم وجميلهم وبرهم حتى حسبتهم اهلي

وقال ابن خلكان معلقاً على بيت الشاعر :

ولا تظنّ خفاء النجم من صغر فالذنب في ذاك محمولٌ على البصر

((قلت ؛ وهذا البيت مأخوذ من قول أبي العلاء المعري في قصيدته الطويلة المشهورة .

القائل فيها :

والنجم تستصغر الابصار رؤيته والذنب للطرف لا النجع في الصغر))^(٤٤)

وخلاصة القول . فان لغة الشاعر واضحة سهلة انطوت على عناصر اللغة الشعرية الجيدة .

وبعدها عن الغرابة ، وأن معانيه واضحة بعيدة عن التعقيد والالتواء أو التعكف .

مقتله وسببه

ذكر العماد الأصفهاني أن الرجل قتل سنة اثنتين وستين وخمسائة وعنه نقل صاحب

الروضتين وابن شاعر الكتبي وياقوت الحموي كما يبدو^(٤٥).

أما ابن خلكان فقد نقل عن الجاحظ أبي طاهر السلفي قوله أنه توفي سنة ثلاث وستين

وخمسائة في رجب ، وقال أيضاً أن العماد ذكر في كتاب السيل على الذيل الذي ذيل به على

الخريدة أنه قتل سنة ثلاثة وستين وخمسائة^(٤٦).

أما عن سبب قتله ، فيبدو أن للأمر علاقة بدعوته لنفسه بالخلافة ، واتصاله بملوك

اليمن ومدح الشاعر لهم ، فقال في أحدهم^(٤٧):

لئن أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا فلست أنال القحط في أرض قحطان

ومذ كفلت لي مآرب بمآربي فلست على أسوان يوماً بأسوان

وإن جهلت حقي زعانف خندف فقد عرفت فضلي غطارف همدان

وقيل انه لما سمع الداعي الفاطمي بعدن هذه الأبيات دفع بها إلى صاحب مصر ،

فكانت سبب الغضب عليه ، فحبس على إثرها كما مرّ . وما لبث أن أطلق سراحه بعد حين ،

ليعيش بعد ذلك مدة من الزمن آمناً مطمئناً . ولكن ما أن دخل أسد الدين شيركوه^(٤٨) إلى

مصر حتى عاد إلى دينه فأعلن تأييده له ضد الفاطميين واتصل به وكاتبه ، وانصوى تحت

لوائه مقاتلاً ، مما حمل شاور^(٤٩) وزير الخليفة الفاطمي آنذاك على ملاحقته حتى ظفر به

وشنقه ، ودفن في الإسكندرية وكان لمقتل الشاعر صدى في نفوس أصدقائه ومحبيه ورثاه

فخر الدين الكاتب أبو علي الحسن بن علي الجويني^(٥٠) بقصيدة رائعة دل فيها على صدق

الوفاء وحرارة المشاعر فضلاً عن نبيل الصحبة وسلامة الإخاء ومما قاله فيها^(٥١):

حرقني ما لنارها من خمود كيف تخبو والنار ذات الوقود

لك يا ابن الزبير قلت لأيا
عبراتي يا أحمد بن عليّ
عبرات ترمي بها في حدور
إن حزني عليك غضٌ جديدٌ
إن تمت غبطةً فإن أياديـ
كيف تحلو لي الحياة وقد حائتـ
م سروري ولذتي لا تعودني
صيرت في الخدود كالأخدود
زفرات ترقى لها في صعود
وفؤادي المحزون غير جليد
ك البواقى قد بشرت بالخلود
ت عن عذب خلقك المورد

أشعاره

(١)

١- ألين لداوود الحديد كرامةً
٢- لولان لك المرجان وهو حجارة
يُفدّرُ منه السرد كيف يُريدُ
ومقطّعه صعب المرام شديدُ
_____ التخريج :

خريدة القصر / ٣٣ .

(٢)

١- جلت لدي الرزايا بل جلت هممي
٢- غيري يغيره عن حسن شيمته
٣- لو كانت النار للياقوت محرقةً
٤- لا تغررن بأطماري وقيمتها
٥- ولا تظنّ خفاء النجم من صغرٍ
_____ التخريج :

الأبيات في وفيات الأعيان / ١: ١٤٥-١٤٦ ، والوفاي بالوفيات / ٧: ٢٢٠-٢٢١ ،
والبيت (٢) في مرآة الجنان / ٢: ١٢٤ .

(٣)

١- ما للغصون تميذٌ سكرًا
٢- جاري الملوك إلى العلا
٣- سائلٌ به عصب النفا
٤- أيام أضحي النكرُ معروفًا
٥- قسماً بمن طاف الحجيح
٦- لولا طلائع لم نكن
٧- أفكر بلاء بالعرا
هل سُفيت بالمزّن خمرا
لكنهم ناموا وأسرى
ق غداة كان الأمرُ إمرا
وأمسى العرفُ نكرا
بييته شعثاً وغُبرا
نرجو لميت الدين نَشرا
ق وكربلاء بمصر أخرى؟
_____ التخريج :

الأبيات (١ - ٦) في خريدة القصر / ٢٠١-٢٠٢ ، والبيتان (١ ، ٧) في معجم الأدباء / ٤ : ٥٢-٥٣ ، والوافي بالوفيات / ٧ : ٢٢١ .
 _____ اختلاف الرواية :

١- وردت في معجم الأدباء والوافي (ما للرياض تميد).

(٤)

١- سمحنا لدنيانا بما بخلت به علينا ولم نحفل بجل أمورها الطويل

٢- فيا ليتنا لما حررنا سرورها وقتنا أذى آفاتنا وشرورها

_____ التخريج :

معجم الأدباء / ١ : ٢٤٢ ، الوافي بالوفيات / ٧ : ٢٢٠ .

(٥)

١- لئن خاب ظني في رجائك بعدما ظننت بأنني قد ظفرت بمنصف الطويل

٢- فإنك قد قلدتني كل منة ملكت بها شكري لدى كل موقف

٣- لأنك قد حذرتني كل صاحب وأعلمتني أن ليس في الأرض من يفي

_____ التخريج :

الأبيات في خريدة القصر / ٢٠١ ، وفي وفيات الأعيان / ١ : ١٤٦ ، والوافي بالوفيات / ٧ : ٢٢٢ ، ومرآة الجنان / ٢ : ١٢٥ .

(٦)

١- ولما نزلنا في ظلال بيوتهم أمنا ولننا الخصب في زمن محل الطويل

٢- ولو لم يزد إحسانهم وجميلهم على البر من أهلي حسبتهم أهلي

_____ التخريج :

الوافي بالوفيات / ٧ : ٢٢٠ .

(٧)

١- توقع لأيام اللئام زوالها فعمما قليل سوف تنكر حالها الطويل

٢- فلو كنت تدعو الله في كل حالة لتبقي عليهم ما أمنت انتقالها

_____ التخريج :

مرآة الزمان / ٢ : ٨٥ .

(٨)

١- إذا ما نبتت بالحُرِّ دارٌ يودُّها ولم يرتحل عنها فليس بذئ حزم الطويل

٢- وهبَّه بها صباً ألم يدُر أنها سيزعجه منها الحمام على رغم

٣- ولولا الأجلُّ الكاملُ الملكُ أرقلتُ بي العيسُ في البيداءِ والسفنُ في اليمِّ

٤- ولم تكن الدنيا تضيقُ على فتى يرى الموتَ خيراً من مقامٍ على هَضْمٍ

_____ التخريج :

الأبيات (٤-١) في خريدة القصر / ٢٠٠-٢٠١، والبيتان (١، ٢) في وفيات الأعيان / ١: ١٤٦،
، ومراة الجنان / ٢: ١٢٥ .

الكامل

(٩)

رحلوا، فلا خلت المنازل منهم
ضياء نور الشمس ما لا يكتم
روت جفوني أي أرض يمموا
نزلوا، وفي قلب المتيم خيموا
نار الغرام، وسلموا من أسلموا
أو أيمنوا، أو أنجدوا، أو أتهموا
بعد المزار فصفو عيشي معهم
عندي، ولكن التفرق أعظم
جفني، ولكن سح بعدكم الدم
هيهات، لا لقيتم ما قاتم
قلت: الذين هم الذين هم هم
وسط السويداء، والسواد الأكرم
أنني حفظت العهد، لما خنتم
ما جرتم، وسهدت، لما نمتم
رفقاً، ففيه نار شوق تضرم
لا تنطفي إلا بقرب منكم
دمعي، إذا ضن الغمام المرزم
وعهودكم محفوظة، مذ غبتم
حكمتهم في مهجتي فتحكموا
فلطالما حفظ الوداد المسلم
عن بعض ما يلقي الفؤاد المغرم
جرم ولا سبب لمن ننتظلم؟
ونأيتم، وقطعتم، وهجرتم
يسلو عن البيت الحرام المحرم؟

١- يا ربع، أين ترى الأحبة يمموا
٢- وسروا، وقد كتموا الغداة مسيرهم
٣- وتبدلوا أرض العقيق عن الحمى
٤- نزلوا العذيب، وإنما في مهجتي
٥- ما ضرهم، لو ودعوا من أودعوا
٦- هم في الحشا إن أعرقوا أو أشأموا
٧- وهم مجال الفكر من قلبي وإن
٨- أحبابنا، ما كان أعظم هجركم
٩- غبتم، فلا والله ما طرق الكرى
١٠- وزعمتم أنني صبور بعدكم
١١- وإذا سئلت بمن أهيم صباية
١٢- النازلين بمهجتي وبمقلتي
١٣- لا ذنب لي في البعد أعرفه سوى
١٤- فأقمت، حين ظعنتم، وعدلت، لم
١٥- يا محرقة قلبي بنار صدورهم
١٦- أسعرتهم فيه لهيب صباية
١٧- يا ساكني أرض العذيب سقيتم
١٨- بعدت منازلكم وشط مزاركم
١٩- لا لوم للأحباب فيما قد جنوا
٢٠- أحباب قلبي أعمره بذكركم
٢١- واستخبروا ريح الصبا تخبركم
٢٢- كم تظلمونا قادرين، وما لنا
٢٣- ورحلتم، وبعدتكم، وظلمتم
٢٤- هيهات لا أسلوبكم أبداً، وهل

- ٢٥- وأنا الذي واصلت، حين قطعتم
 ٢٦- جار الزمان علي، لما جرتم
 ٢٧- وغدوت بعد فراقكم، وكأنني
 ٢٨- ونزلت مقهور الفؤاد ببلدة
 ٢٩- في معشر خلقوا شخوص بهائم
 ٣٠- إن كورموا لم يكرموا أو علموا
 ٣١- لا تنفق الآداب عندهم ولا الـ
 ٣٢- صم عن المعروف حتى يسمعوا
 ٣٣- فالله يغني عنهم، ويزيد في
- وحفظت أسباب الهوى، إذ خنتم
 ظلماً، ومال الدهر، لما ملتتم
 هدف يمر بجانبه الأسهم
 قل الصديق بها وقل الدرهم
 يصدى بها فكر اللبيب ويبههم
 لم يعلموا، أو خوطبوا لم يفهموا
 إحسان يعرف في كثير منهم
 هجر الكلام فيقدموا ويقدموا
 زهدي لهم، ويفك أسري منهم

_____ التخريج :

الأبيات (٣٣-١) في معجم الأدباء /٤: ٥٣-٥٤ ، والأبيات (٣-١، ١٣، ١٤) في الوافي بالوفيات /٧: ٢٢٢-٢٢٣ ، والأبيات (٦-١) في نفح الطيب / ٤: ١١٦ .
 اختلاف الرواية :

- ١- ورد في الوافي بالوفيات ونفح الطيب في رواية البيت الأول
 (رحلوا فلا خلت المنازل منهم) ونأوا فلا سلت الجوانح عنهم)
 ٣- ورد في نفح الطيب في رواية البيت الثالث:
 (وتبدلوا أرض العقيق عن الحمى رحلوا وفي قلب المتيم خيموا)
 ٤- ورد في نفح الطيب في رواية البيت الرابع:
 (نزلوا العذيب وإنما هو مهجتي رحلوا وفي قلب المتيم خيموا)
 ٦- ورد في نفح الطيب في رواية البيت السادس :
 (هم في الحشا إن أعرقوا أو أينموا أو اشأموا....)

(١٠)

- ١- لئن أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا فلست أنال القحط في أرض قحطان الطويل
 ٢- ومذ كفلت لي مآرب بمآربي فلست على أسوان يوماً بأسوان
 ٣- وإن جهلت حقي زعانف خندفٍ فقد عرفت فضلي غطارف همدان

_____ التخريج :

الأبيات (٣-١) في وفيات الأعيان /١: ١٤٧ ، ومراة الجنان /٢: ١٢٤ . والبيت (٣) شذرات الذهب /٦: ٣٢٨ .

(١١)

- ١- تركت أناساً في غصارة عيَّسهم وأمتَّتهم من طارق الحدَّان الطويل
 ٢- وكنتُ لهم حصناً حصيناً وموتلاً وأصلتُ سيفي دونهم ولساني
 ٣- وعلمتهم رمي العدو فكلُّهم تَعَمَّدني دون العدى فرماني
- _____ التخريج :

خريدة القصر/ ٢٨٤.

(١٢)

- ١- توأصى على ظلمي الأنام بأسرهم وأظلم من لاقيت أهلي وجيراني الطويل
 ٢- لكل امرئ شيطانٌ جنٌ يكيده بسوءٍ ولي دون الورى ألفُ شيطانٍ
- _____ التخريج :

خريدة القصر / ٢٠٢ .

الهوامش والإحالات

- ١- معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، دار المستشرق ، بيروت ، د.ت. ٤/ : ٥١ ، وفيات الأعيان. أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبى بكر بن خلکان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ، د.ت. ١/ : ١٤٤ ، الوافي بالوفيات/ ٧ : ٢٢٠ ، وشذرات الذهب/ ابن العماد الحنبلي / تح: محمود الارناؤوط / مط: دار ابن كثير - بيروت - ط ١ - ١٩٩١ / ٦ : ٣٢٨ .
- ٢- معجم الأدباء / ٤ : ٥١ ، والوافي بالوفيات ، الصفدي (ت ٧٦٤هـ) احمد الطيب بن خلف واحمد محمد ، باعتناء : إحسان عباس ، طبعة : دار صادر ، ١٩٦٩م. / ٧ : ٢٢٠ .
- ٣- خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر)، العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ)، نشره : أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس، مطبعة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، تاريخ المقدمة ١٩٥١ . / ٢٠٢ - ٢٠٣ .
- ٤- معجم الأدباء / ٤ : ٥١ .
- ٥- خريد القصر/ ٢٠٠ ، وفيات الأعيان/ ١ : ١٤٤ ، والوافي بالوفيات/ ٧ : ٢٢٠ ، والروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية / المقدسي (ت ٦٦٥هـ) وضع حواشيه : ابراهيم شمس الدين / مط: دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ٢٠٠٢ / ٢ : ١٧ .
- ٦- الوافي بالوفيات/ ٧ : ٢٢٠ .
- ٧- وفيات الأعيان/ ١ : ١٤٤ ، والوافي بالوفيات/ ٧ : ٢٢٠ .
- ٨- معجم الأدباء / ٤ : ٥١ .
- ٩- الوافي بالوفيات/ ٧ : ٢٢٠ .
- ١٠- الوافي بالوفيات/ ٧ : ٢٢٠ .
- ١١- معجم الأدباء / ٤ : ٥١ ، والوافي بالوفيات/ ٧ : ٢٢٠ .
- ١٢- ابن قادوس: محمود بن إسماعيل بن قادوس القاضي، أبو الفتح المصري الكاتب صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية؛ أصله من دمياط، قيل إن القاضي الفاضل كان ممن اشتغل عليه، وكان يعظمه ويسميه "ذو البلاغتين"، توفي سنة إحدى وخمسين وخمسائة . (الوافي / ٨ : ١٤٤)
- ١٣- معجم الأدباء / ٤ : ٥٣ .
- ١٤- الوافي بالوفيات/ ٧ : ٢٢٢ - ٢٢٣ .
- ١٥- وفيات الأعيان/ ١ : ١٤٥ .

- ١٦- والروضتين / ٢ : ١٨ ، ومراة الجنان وعبرة اليقضان ، اليافعي ، تحقيق : عبد الله الجبوري ، بيروت ، ١٩٨٤ م . / ٢ : ١٢٤ .
- ١٧- الوافي بالوفيات / ٧ : ٢٢٠ .
- ١٨- الشريف الإدريسي : محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس بن يحيى بن علي بن حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله ابن عمر بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الشريف الإدريسي . (الوافي / ٥ : ٨٧)
- ١٩- معجم الأدباء / ٤ : ٥٤ .
- ٢٠- م . ن .
- ٢١- الوافي بالوفيات / ٧ : ٢٢٠ .
- ٢٢- وأشار الصفدي إلى أن القاضي قد جمع شعر بدران ابن سيف الدولة وسماه جنان الجنان ورياض الأذهان (الوافي بالوفيات ٢ / ٣٢١) . وهذا الكتاب قد نقل منه طائفة من أجلة العلماء منهم العماد الأصفهاني في الخريدة ، تنظر : الصفحات ٢٥٦ ، ٢١٨ ، ٢٩٤ ، ٢٣ - وقد أورد العماد ما نصّه ((وقد صنّف - القاضي - كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان وذيّل به اليتيمة - ويقول العماد - طالعت منه جزءاً ذكر فيه شعراً)) تنظر الخريدة : ٢٠٢ ، وقد نقل منه ابن خلكان في وفياته ٣ / ٣١٥ ، ٧ / ٢٢٢ .
- ٢٣- خريد القصر / ٢٠١ .
- ٢٤- الظافر صاحب مصر : إسماعيل بن عبد المجيد هو أبو المنصور الظافر ابن الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الطاهر ابن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي ، بويع يوم مات والده بوصية أبيه ، وكان أصغر أولاده سناً وكان كثير اللهو واللعب والتفرد بالجواري واستماع الأغاني ، وكان يأنس إلى نصر بن عباس وكان عباس وزيره ، فاستدعاه إلى دار أبيه ليلاً بحيث لم يعلم به أحد وتلك الدار هي المدرسة الحنفية المعروفة بالسبوقية فقتله بها وأخفى قتله وذلك في منتصف المحرم سنة تسع وأربعين وخمسائة . (الوافي / ٢ : ٣٨٥)
- ٢٥- الفائز العبيدي : أبو القاسم عيسى الملقب بالفائز بن الظافر بن الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الطاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله . (وفيات الأعيان / ٣ : ٤٢١)
- ٢٦- معجم الأدباء / ٤ : ٥٥ .
- ٢٧- معجم الأدباء / ٤ : ٥٥ ، والوافي بالوفيات / ٧ : ٢٢٢ .
- ٢٨- قُوصُ : بالضم ثم السكون وصاد مهملة ، وهي قبطية ، وهي مدينة كبيرة عظيمة واسعة قسبة صعيد مصر بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوماً وأهلها أرباب ثروة واسعة . (معجم البلدان ، ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) ، طبعة : دار صادر ، ١٩٧٢م . / ٣ : ٤٦٢)
- ٢٩- معجم الأدباء / ٤ : ٥٢ ، والوافي بالوفيات / ٧ : ٢٢١ .
- ٣٠- الملك الصالح : طلائع بن رزيك الأرمني ثم المصري الشيعي ، أبو الغارات ، وزير الديار المصرية ؛ قتلوه سنة ست وخمسين وخمسائة . (الوافي / ٦ : ٥٤)
- ٣١- خريدة القصر / ٢٠١ .
- ٣٢- الوافي بالوفيات / ٧ : ٢٢٠ .
- ٣٣- م . نفسه / ١ : ١٤٤ .
- ٣٤- م . نفسه / ١ : ١٤٥ .
- ٣٥- م . نفسه / ١ : ١٤٥ .
- ٣٦- خريدة القصر : ٢٠٠-٢٠١ ، الملك الكامل الأيوبي : (٦٥٨ هـ) محمد بن غازي (المظفر) بن محمد (العدل) : صاحب ميفارقين ، الملقب بالملك الكامل . كان شجاعاً ، صبر زمناً على حرب التتار ، وحاصروه أكثر من سنة ونصف ، وهو ظاهر عليهم ، إلى أن فني أهل البلد ، لفناء زادهم ، ودخلها التتار

- فوجدوه مع من بقي من أصحابه موتى أو مرضى، فقطعوا رأسه وحملوه إلى البلاد وطافوا به في دمشق على رمح قصير. (الأعلام . خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين، ط٥، بيروت، ١٩٨٠ م /٦: ٣٥٥)
- ٣٧- خريدة القصر / ٢٠١ .
- ٣٨- م . ن .
- ٣٩- تنظر قصة الحطيئة والزبرقان في اغلب المصادر التي اختصت بالأدب الإسلامي .
- ٤٠- الوافي بالوفيات/٧: ٢٢١ .
- ٤١- معجم الأدباء/٤: ٢٣ .
- ٤٢- خريدة القصر/٢٠٢ .
- ٤٣- معجم الأدباء ٤: ٥٣ .
- ٤٤- وفيات الأعيان /١: ١٤٥ .
- ٤٥- خريدة القصر / ٢٠١ ، الروضتين /٢: ١٧ ، معجم الأدباء/٤: ٥٣ .
- ٤٦- وفيات الأعيان /١: ١٤٥ .
- ٤٧- خريدة القصر/٢٠١ .
- ٤٨- أسد الدين شيركوه بن شاذي بن مران بن يعقوب، الملك المنصور أسد الدين وزير العاضد؛ ونشأ بتكريت إذ كان أبوه متولي قلعتها . (الوافي/٢: ١١٦)
- ٤٩- شاور بن مجير بن نزار بن عشاير السعدي الهوازني، أبو شجاع، ملك الديار المصرية ووزيرها؛ كان طلائع بن رزيق قد ولاه الصعيد وندم على ذلك، فتمكن في الصعيد، وكان شجاعاً فارساً شهماً. وقتل شاور، قتله عز الدين حزدك النوري، ويقال إن صلاح الدين هو الذي أوقع به سنة أربع وستين وخمسمائة . (الوافي/ ٤: ٢١٨)
- ٥٠- أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم الملقب فخر الكتاب الجويني الأصل البغدادي الكاتب المشهور؛ كتب كثيراً، ونسخ كتباً توجد في أيدي الناس بأوفر الأثمان لجودة خطها ورغبتهم فيه، وذكره العماد الكاتب في "الخريدة" وبالغ في الثناء عليه، وقال: كان من ندماء أتاك زكي بالشام، وأقام بعده عند ولده نور الدين محمود في ظل الإكرام، ثم سافر إلى مصر في أيام ابن رزيق، وتوفي سنة أربع وثمانين، وقيل: ست وثمانين وخمسمائة، بالقاهرة، رحمه الله تعالى . (وفيات الأعيان/ ٥: ١٤٩)
- ٥١- الوافي بالوفيات /٧: ٢٢٤- ٢٢٥ .